نحو أدب فلسطيني جديد

سامر خير*

من أجل نصّ إنساني

الطفولة في أول الأمر هي الحلم بأن أصبح شاعراً وكاتباً. كنت ألعب مع أترابي أحياناً، لكن معظم وقتي ـ في فترة ما ـ كنت أقضيه في الكتابة، ثم في القراءة. بدأت الكتابة في سنّ مبكرة جداً، في السابعة أو الثامنة من عمري، بمحاولات طفولية بريئة. وما زلت أحتفظ إلى الآن بعشرات "القصائد" التي ألّفتها قبل أن أبلغ العاشرة من عمري.

الكتابة الأولى عندي كانت سابقة على القراءة، وهذا أمر ما زال إلى الآن يحيّرني حقاً.

في تلك السنّ المبكرة قرأت من الشعر القديم المتنبي وأبا تمام وأبا العلاء المعري وغيرهم، ومن الشعر المعاصر الشعراء المحلّيين جورج نجيب خليل وسميح القاسم ومحمود درويش (الترتيب بحسب مواعيد القراءة)، وغيرهم. وكنت قد وجدت كتباً لهؤلاء جميعاً بين مخلفات جدّي الذي كان يُعرف بذكائه وثقافته واطلاعه الواسع في الفقه والأدب والعلوم.

ذاك الطفل الذي كنتُه هو الذي يدفعني ويحثّني على الاستمرار في الكتابة، لأنه يعرف حقّ المعرفة أن هذه رسالته التي من أجلها جاء إلى العالم.

والطفولة ثانياً هي الحدّ الفاصل عندي بين عالمَين. فقد ترعرعت في حارة قديمة في قريتي المغار، في فترة كان يُسدل الستار فيها على ملامح حياة كاملة عاشها جدّي، فلا يبقى منها سوى أطلال في ذاكرته، أو فيما تبقّى من فُتات المكان.

مَن قال إن المكان لا يمضي ولا ينقضي كالزمان؟!

.. ويتزامن هذا ـ عند ذاك ـ مع سعي المؤسسة الصهيونية لمحو ذاكرتنا وتاريخنا، وفصلنا عن جذورنا. وأي إثبات على هذا العَدَم المزعوم أقوى من الأمر الواقع الذي يتربع الصهيوني على عرش القوة فيه؟ ألم يعبّد هو شوارع القرية؟ ألم يمدّ هو شبكات الكهرباء والماء؟ ألم يُحضر هو التلفزيون الملون إلى البلد؟.. بينما تمّحي علامات الحياة الفلسطينية القديمة كلها، بناسها وبيوتها وحميرها وحقولها، وقد

* شاعر وصحافي من مواليد المغار / الجليل ١٩٧١. صدر له: "أمشي على قلبي" ١٩٨٧؛ "أعود مثل غيمة إلى الشجر" ٢٠٠١؛ "أزهار الخراب" ٢٠١٢؛ "لا اسم لي إلاّ ابن آدم" ٢٠١٣.

كانت "حياة بائسة" على أي حال!

من حسن حظنا ـ أنا وبعض أترابي ـ أن قُيّض لنا أن نغني نشيد "موطني" بتأثر ودموع منذ سن مبكرة، وأن نكتشف أن معظم شعبنا منكوب ومشرد، وأننا محظوظون لبقائنا حيث نحن في وطننا الوحيد، ونتعلم أن وطننا كان اسمه فلسطين وسيظل اسمه فلسطين، ويستطيع مَن شاء أن يسمّي هذه الدولة أو تلك بما شاء.

لم تكن طفولتي سعيدة بشكل خاص، لكنها لم تكن بائسة قط. لم تكن أسرتي غنية، لكنها لم تكن فقيرة أيضاً. كان كل شيء في الوسط. كانت الأمور عادية، لكن الأسئلة كانت كبيرة وخطرة. وكان جيلنا مغامراً وجريئاً وشجاعاً، في حين أن آباءنا، في معظمهم، لم يتخلصوا من الخوف الذي حماهم في مرحلة ما من التشرد والضياع.

إذاً فالطفولة في آخر الأمر، بما احتوت من مفارق تاريخية مصيرية، شكّلت وعيي الأوّلي للعالم والمحيط. ولا شك في أنها أثّرت في صقل أسلوبي الشعري ورسم مشروعي الشعري وتكوينه، لكن يظل البحث في هذا الأمر شأن الباحثين المختصين بالتأكيد.

ومع ذلك كله، كم وددت لو أنني ولدت فلسطينياً في ظروف أُخرى.

أَن تولد فلسطينياً يعني أن توجد في حالة دائمة من الحيطة والحذر والمقاومة. ليست الشجرة شجرة فقط، وليست الأرض أرضاً فقط، وليس البيت بيتاً فقط. فوراء هذه الأشياء كلها ما يهدد بسلبها. يصبح لزاماً عليك إذاً أن تبقى صاحياً، أو أن تنام بعين واحدة، فتنال منك مهمة حماية عالمك وحراسته قسطاً أكبر كثيراً من مجرد الانتباه إليه والتفكر فيه والاستمتاع به ككل إنسان سواك على وجه هذه البسيطة.

بل إن الأمور تتعقد أكثر حين تكون أنت نفسك مهدداً بالسلب، وثقافتك وتراثك وأزياؤك وخبزك كلها مهددة بالسلب!

فقُل لي بربك كيف تتمكن ـ في مثل هذه الأوضاع ـ من الكتابة كإنسان فقط، مجرداً من جنسيتك أو قوميتك، كما يفعل الفرنسي أَو الصيني؟ أي كيف تنجح في إضافة شيء ما إلى الأدب الإنساني من دون أن تتعثر بحُفر تفصيلات مأساتك القومية الآنية التي قد لا تعني أحداً، وقد لا تعنيك أنت نفسك في مرحلة ما لاحقة؟ أو بكلمات أُخرى: كيف تنجح في الامتناع من وصف الجوع، حين تتحدث عن جمال البحر والأفق والغيوم والسماء وأنت جائع إلى حد السّغَب؟!

إنها لمعضلة!

وأنت تحاول اجتراح المعجزة، فقد تتعمد الابتعاد عن التفاصيل السياسية اليومية، فتنجح حيناً، وتفشل حيناً.. فأنت جزء من هذه التفاصيل. فتراك تكتب تارة ما لو قرأته لاحقاً بحيادية فلن تعرف أن كاتبه فلسطيني بالضرورة، بل قد يكتبه أي كائن بشري. وتراك تكتب تارة أُخرى ما يمكن الجزم بكل ثقة ووضوح أن مَن كتبه فلسطيني ابن فلسطيني!

إنها لمعضلة حقاً! ولكنك تتعلم مع الوقت أن عليك تجاوز الخاص الفلسطيني إلى العام الإنساني. قد يحلّ هذا بعضاً من معضلتك، لكنه قد يخلق في آن مشكلة مع بعض المتحجرين الذين يُهيأ لهم أن كلمة فلسطين وحدها ـ أو كل ما يدل عليها ويُشتق منها ـ كافية لجعل أي نصّ أدباً. فهم لا يفهمون الالتزام إلاّ بهذا الشكل المباشر الجاف. وهكذا، فقد تسعى للهرب أحياناً ممّا ربما يلهث آخرون من أجل اللحاق به.

في مجموعتي الشعَرية العاشرة، وهي الأحدث صدوراً، والتي سمّيتها "الشاعر يريد تغيير القصيد" (نُشرت في سنة ٢٠١٣ في ديوان أعمالي الشعرية الناجزة "لا اسم لي.. إلاّ ابن آدم")، اتخذتُ هذا المنحى الإنساني

في الكتابة في معظم قصائد المجموعة. وليس مصادفة أن تَرافَق هذا مع أسلوب شكلي نثري تخلّيت فيه عن أوزان شعر التفعيلة، كأن هذا الهمس الشعري الإنساني أبى إلاّ أن يكون صارخاً.

لقد قرأت عبر السنين لشعراء وكتّاب عرب وعالميّين كثر، بينهم أدباء عبريّون أيضاً. وأكثر ما كان وما زال يستميلني هو النصوص ذات المضامين الإنسانية التي تتجاوز كل ما هو آنيّ إلى ما هو باق ما بقي الإنسان. ففي نصوص أدبية كهذه أشعر بأنني في بيتي أجلس على الكنبة بملابسي البيتية واضعاً قدميّ على طاولة الصالون، وأقفز بين الحين والآخر لأقطف ما أشاء عن رفوف الثلاجة بلا حرج. ولا يعنيني مَن هو الكاتب أو الكاتبة. ولأن النصوص الأدبية هي التي تستهويني، فها أنذا أتعمد أن أتجنّب ذكر الأسماء.

قد أذكر نكهة نصوصهم وقد أنسى أسماءهم. فما يعنيني هو النصّ، وهو الذي يؤثر فيّ وفي أسلوب كتابتي. إن النصوص الإبداعية الإنسانية الصرفة هي التي حفزتني دائماً على مزيد من الكتابة والتجريب والإبداع.

ولأن الكتابة عندي كانت سابقة على القراءة، كما ذكرتُ، فإن ميدان التجارب والحياة والواقع كان المنبع الأول الذي ينهل منه قلمي. بمعنى آخر، لا أرضى عن نصّي إلاَّ إذا كان ذا جذور منغمسة في الواقع، وذا أغصان تهزّها رياح التجارب. ■

صدر حديثاً عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية

الصراع العربي ـ الإسرائيلي

في ضوء المتغيرات العربية والإقليمية

تحرير

جميل هلال

٢٠٦ صفحات ١٢ دولاراً